**دور الخطاب المدني في تحولات الشباب الفكرية**

**مسفر بن علي القحطاني**

**المقدمة :**

**بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه. وبعد:**

**إن الحديث عن الشباب دائماً مقترن بالآمال والتطلّعات والمطالبات، والخطاب المعاصر الموجّه للشباب مليء بالمفردات المثالية الحالمة؛ كأمل المستقبل وعماد الأمة، أو يجب عليهم أن يفعلوا كذا، وينبغي تحصينهم من كذا، وأغلب التوجيهات الشبابية هي في مجال المطالبات بالواجبات أو التحذير من التقصير فيها، وتُطلق هذه الصيحات في العادة من أبراج عاجيّة أو فوق أعواد المنابر، وكأن الشباب قد أغمضوا أعينهم ، ولم يبق سوى التنفيذ لما يُطلب منهم من عمل أو تأدية ما يلزمهم من واجب!
وهذا الخطاب الغالب مع أهميته قد يصلح لفئة خيّرة من الشباب.. ولكن هل يصلح التوجيه نفسه للأعم الأغلب من شبابنا في المجتمع السعودي ممن لم يتجاوزوا الخامسة والعشرين من العمر؛ إذ تصل نسبتهم نحو60% أي شاب ؟ علماً بأن معدل النمو السكاني في المملكة يبلغ 3% سنوياً، ويُعدّ من أعلى معدلات الزيادة السكانية في العالم.
وهذه الشرائح المختلفة والمتنوعة من الشباب تعاني مشكلات وأزمات من أهمها أنهم لا يجدون من يستمع لشكواهم أو يتلمّس احتياجاتهم، أو يتفهّم معاناتهم، وهذه الخطوة من مَلَك مفاتحها استطاع أن يصل إلى قلوب الشباب وأن يحركها كما يريد.. ومع أهمية هذه الممارسة الإقناعية فإنها لا تخلو من خطورة قد تحيد بالشاب إلى منزلقات فكرية متطرّفة، وقد تكون خطوة نحو البناء والإيجابية. التحدي الحقيقي ليس في معرفة الداء الذي يعاني منه الشباب المعاصر بل يكمن التحدي في البحث عن الدواء الأنسب لحاجات الشباب وإقناعهم بوعي بمدى أهمية العلاج وتحسين أحوالهم النفسية بالدرجة الأولى لتعزيز ثقته بنفسه وقناعاته ودينه وقيمه، ولو قمنا بعد ذلك بمحاولة بناء فكره بالمعارف الراسخة وأيقظنا في أعماقه كوامن الرغبة في البحث والاطلاع فإن قاعدة البناء قد تأسست بشكل راسخ وعلى أرض صلبة يمكن بعدها أن نطالب الشباب بتحقيق الأحلام وتقريب الآمال للأمة والمجتمع.

ولعل الأهم في هذه المرحلة القلقة في حياة الشباب كواجب على المفكرين والدعاة والمصلحين أن يثيروا أهل العزم والحزم من الأمة الإسلامية بأن يبعثوا من جديد هذا الوعي الحضاري والبناء الفكري في عقول الجميع، ويقدموا لأفراد الأمة، خصوصا الشباب العدة الكافية والعتاد اللازم لخوض المعركة الحضارية التي زاد سُعارها بعد اندفاع سيل العولمة في كل أودية الفكر والثقافة والاقتصاد في مجتمعاتنا؛ حتى الحملات العسكرية الغربية التي تُشنّ على بعض البلاد الإسلامية وغيرها تُسوّغ بأنها دفاع عن القيم والمبادئ الحضارية، ولا يقصدون هنا سوى حضارتهم دون غيرها. فأُقحمنا - شئنا ذلك أم أبينا - أمام صدام عملي بين الحضارات العالمية، وإن كان المفهوم النظري لهذا الصدام أكثر تسامحاً وتعقّلاً - ومع هذا التحفظ على المصطلح - فإن الأدوات الفاعلة في هذه الحرب المستعرة هي للعلم والتقدم والتسابق التقني والتنافس الاقتصادي على الموارد والطاقة، وليست في حقيقتها سباقاً في التسلح أو من خلال عسكرة الحرب.
فهذه المعركة ضارية، تحتاج منا إلى تأهل يدفعنا إلى معرفة موقعنا على خارطة الأمم، ومحاولة اليقظة العاجلة بالعودة إلى أسس المدافعة والبناء، ولن يتم ذلك إلا بالبناء العلمي، وإشاعة العدل والمساواة، واحترام الإنسان والإحسان إلى كل شيء.
وبالعودة الصادقة الواعية للدين نضمن الحصول على كل تلك الأدوات الفاعلة للنهوض الحضاري، كما استخدمها النبي - صلى الله عليه وسلم - في بعثه الأول للأمة .. فالعلم فريضة في شريعتنا على كل مسلم ومسلمة، والعدل والمساواة قواعد كلية عليها قامت كل أحكام الدين والدنيا، واحترام الإنسان جاء من خلال حفظ كلياته الخمس: دينه ونفسه ونسله وعقله وماله، وانتظمت كل الأحكام الشرعية في تلك المقاصد الكلية، أما الإحسان فقد كتبه الله – عز وجل - على كل شيء حتى في أعنف حالات التعامل مع الآخرين، كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : «إن الله كتب الإحسـان في كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحدّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته» حتى الجماد والبيئة لم يُغفل حقها من التشريع؛ كما في النهي عن البول في الماء الراكد أو تحت الأشجار أو طرقات الناس، وكذا نهيه عن سبّ الدهر، والريح، أو قطع الأشجار المثمرة، إلى غيرها من صور التحضر الواعي الذي افتقدناه في مجتمعاتنا التي أصبحت مضرب المثل في التخلف والفقر، وشيوع الأمراض، وانعدام الحياة الكريمة للفرد العادي. أن يقظة الوعي لدى الشباب على وجه الخصوص سيشكّل لدينا الإفاقة اللازمة لغفوتنا الحضارية الراهنة..!وهذه الورقة التي أقدمه في هذا المؤتمر ، أسلط فيها الضوء على الخطاب المدني في تحولات الشباب الفكرية .من خلال المسائل التالية :**

**أولا : الشباب وسؤال النهضة .**

**ثانيا: دور الوعي الجمعي في التحولات الشبابية.**

**ثالثا: محاذير من بعض التحولات الشبابية .**

**وهذه القضايا المطروحة هي جزء من توصيف الواقع الشبابي ومدى تعقلنا في فهمه من أجل خطوات نحو الإصلاح المدني لمجتمعنا اليوم .**

**والله أسأل التوفيق والاخلاص والسداد وهو سبحانه أعلم وأحكم وصلى الله وسلم على محمد وآله وصحبه أجمعين .**

**كتبه مسفر بن علي القحطاني**

**الاستاذ المشارك بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن**

**الظهران**

**المسالة الأولى : الشباب وسؤال النهضة المدنية.**

**شكّل سؤال النهضة في نهاية القرن التاسع عشر منعطفا تغييرا لدى عدد من مفكري العالم العربي والإسلامي ، و بعث روح التجديد في العقل العربي ، وأثمر نتاجا فكريا عميقا من خلال ثورة ذلك السؤال الباحث عن اسباب التخلف والضعف والضمور الذي لف العالم الإسلامي آنذاك، حصل هذا الحراك الفكري بعد مرحلة التماس السلمي مع الغرب الناهض والمتقدم في مجالاته الحياتية المختلفة، وكانت مشاريع النهضة الأوروبية تبحث لها عن آراضي جديدة تطولها يد القوة والفكر الجديد للتبشير بعالم حر قادم من الشمال ، في تلك اللحظة القاتمة والمتخلفة في عالمنا العربي بدأت محاولات طرح السؤال النهضوي على يد عدد من شهود ذلك التماس الحضاري بين الشرق والغرب ،فكان رفاعة الطهطاوي (1873م) من أوائل من حمل هذا اللواء ،عندما بدأ ببث الوعي النهضوي في كتابه (تخليص الابريز)، ثم أكمل مساره خير الدين التونسي (1888م) في كتابه( أقوم المسالك في معرفة الممالك ) حيث بيّن شروط تجديد التمدن الإسلامي و وسائل نهوضه، كما قام عبدالرحمن الكواكبي (1902م) بنشر ثقافة النهضة من خلال مقدمة كتابه (أم القرى) بشكل خاص وكتابه (طبائع الاستبداد) بشكل عام ، و نشط هذا الحراك النهضوي بشكل اكبر على يد محمد عبده (1905م) من خلال جدل التجديد والتقدم الديني مع رينان وهانوتو وفرح انطوان وغيرهم ، كانت هذه الملامح الأولى لفكر نهضوي يستلهم روح الإسلام في فكرته مع تمكين وترسيخ لأدوات التغيير الأوروبي للواقع العربي آنذاك ، ربما وجدوها بدايةً مناسبة للإنطلاق تحاكي انموذجا حضاريا صالحا للاتباع، وهنا لما أقول بداية التفكير في البحث عن الجواب الفلسفي لسؤال النهضة اخص به الخطاب الإسلامي في عصرنا الحاضر ، ولكن من حيث التأريخ العملي لطرح هذا السؤال ،فيمكن أن نجعل ابن خلدون (1406م) رائدا في إثارة السؤال النهضوي حول كيفية بناء الأمم والحضارات وكيفية ضعفها وسقوطها في مقدمة تاريخه ؟ أكد هذا المنحى عدد من الباحثين الذين ربطوا مشروع الطهطاوي والتونسي بالنهج الخلدوني في دراسة النهوض والانحطاط من خلال إعمال الأسباب والمسببات والعلل ،كما أن الإستفادة من مضامين المقدمة الخلدونية كان طاغيا في انتاجهم الفكري ومحاولاتهم التجديدية (انظر: خطاب النقد الثقافي في الفكر العربي المعاصر للدكتور سهيل الحبيب ص 75- 87 ، فكر ابن خلدون العصبية والقبيلة للجابري ص 252) .و لكن مع بداية القرن العشرين ظهرت مشاريع فكرية أخرى تستلهم العودة الدينية كأساس للتحضر مع حفاظ أشد على الهوية الإسلامية من التأثر بالنماذج الغربية التي بدأت تغزو معاقل التعليم في الشرق الإسلامي ، كان من أبرز رواد هذه المرحلة الشيخ محمد رشيد رضا (1935م) من خلال مجلته المنار ، و الأمير شكيب ارسلان (1946م) من خلال كتابه التساؤلي (لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم) والمفكر الهندي محمد أقبال (1938م) في كتابه (إحياء الإسلام)، بعدها بدأت مرحلة أخرى من العمل الإصلاحي اتجهت فيه نحو الحماية من التغريب الحضاري الداخلي ؛بعدما تكوّنت الدولة المعاصرة رافعةً لواء الفكر الإستعماري التغريبي ؛ ما أدى إلى بروز عدد من الحركات الإسلامية في مقابل تنامي التيارات اليسارية والعلمانية التي جالت أفكارها بحثا في سؤال النهضة ومأزق التخلف ، وللأسف أن هذا الحراك المتسارع في النمو والإثارة الفكرية قد تحول عند الإسلاميين إلى سؤال الهوية والمحافظة عليها وقمع المخالفين والمناوئين ، واختزل مشروع نهضة الأمة إلى مشروع حفظها بقيام دولة الإسلام المحقِّقة لتعاليمه وقيمه ، ظهر ذلك التوجه بشكل واضح في كتابات الندوي والمودودي وسيد قطب و محمد قطب وغيرهم ، ثم أدت الصدامات العنيفة ذات البعد السياسي التي مرت بها الحركات الإسلامية إلى انشغال العديد من مفكريها بالمحافظة على كياناتها بمواجهة اعداء التغريب و حملات التشوية ؛ مما جعل سؤال النهضة وأدبياتها من ثانويات الخطاب الإسلامي بعد منتصف القرن العشرين ،باستثاء مبادرات هامة قدمها مالك بن نبي و الطاهر ابن عاشور وعلال الفاسي تجاوزت هموم المواجهات الفكرية والمدافعات السياسية التي أُدخلت الحركات الإسلامية في أتونها ولم تخرج حتى اليوم ، ويمكن من خلال تلك المقدمة التأريخية لسؤال النهضة التعليق على مدى هامشية السؤال النهضوي في الخطاب الإسلامي المعاصر وانعاكس ذلك على مشاريع التجديد والتغيير الراهنة ، ولعلي اعرضها من خلال النقاط التالية:**

**أولا : تأتي أغلب انجازات الصحوة وتأثيرات الحركات الإسلامية في مجالات مقاومة حملات التغريب و رد محاولات التشكيك بقيم الإسلام و تعاليمه ، وقد قُدِّمت خلال اكثر من ثلاثة عقود مشاريع رائدة في ذلك ، ولكن هذا النتاج جاء في مقابل تجييش المجتمع في خنادق المواجهة لصد تلك الحملات ، حتى لو اختفت مبررات تلك المعارك من ساحات جيل اليوم ، إلا أن هذا الجيل بقي يستلهم الحذر والقلق الشديد إزاء كل المنتجات الغربية كحالة واحدة صلدة لا تقبل التفكيك أو إعادة النظر ، ولكن معطيات العصر و ثوراته التقنية والتواصلية فتحت الأجواء المغلقة للوافد الثقافي والاجتماعي الغربي مما جعل فكرة التخندق تثبت سذاجتها و استحالتها في آنٍ واحد ، و بالتالي برزت تساؤلات عدة طرحها جيل الشباب اليوم حول موقفهم من الغرب و الاستفادة من المنتجات الفكرية والفلسفية لعصر النهضة الأوروبية ،و مدى التعاون مع مؤسساته المدنية ،وهل نجسّر القيم الأخلاقية التوافقية كمشتركات حضارية للحوار والتفاهم ،إلى غيرها من التساؤلات التي لا يزال الخطاب الإسلامي المعاصر يبحث عن مخرج يتجاوز فيه هذه الأزمة وليس حلولا واقعية تبعث جدواها في نفوس وعقول متلقيه .**

**ثانيا : هذه الصراعات المتكررة والمفتعلة استنزفت كثيرًا من طاقات الحركات الإسلامية ، وأدّت إلى تغوّل الجانب السياسي على طبيعة أدبيات واهتمامات هذه الحركات ، وأصبح الخطاب الأيدولوحي هو المهيمن على تفكير أبنائها ، وغابت مسألة النهضة والحضارة عن طبيعة الوظيفة الاجتماعية ،وإذا سألت بعض أبناء الحركات الإسلاميّة عن رؤيته لطبيعة الأزمة الحضاريّة التي تعيش فيها الأمّة أجابك أنّ السبب هو البعد عن الإسلام ، ثمّ إذا سألته عن طريق الخروج من التخلّف أجابك : أنّ الإسلام هو الحل ، لكنّك إذا سألته كيف ؟ ولماذا ؟ ،ومتى ؟ وأين؟ ،أجابك بلغة إنشائية وعظية ،بعيدة عن لغة البرمجة و حسن صناعة الحياة و توظيف قيم الإسلام في النهوض والعمران و تنمية البلدان .**

**ثالثا: مشروعات النهضة هي برامج عمل تقتضي البناء والتغيير مهما كلف الأمر، ولكن بعض التيارات الإسلامية لجأت إلى مبدأ السهولة (الذي قاله مالك بن نبي ) الذي يجذب أصحاب النوايا الطيبة والفئات المخدرة المستكينة ، ومن ثمَّ يستعاض عن متطلبات الحركة بوهج الشعارات وصراخ المطالبات العاجزة بالحقوق والحريات ، بحيث يرضى الضمير المسلم بذلك الاشتعال الوقتي ثم يعود كل شي كما سبق دون تغيير ، إنها أشبه بالمشاريع الصوتية المدغدغة لعواطف الجمهور ، والقليل منها ينفذ إلى العقول ولكن من غير بناءٍ فكري عميق ينظم الذهن ويدفع الفكر للحراك المجتمعي الراشد.**

**رابعا: إن انتهاج طريق التكوين التربوي في الإصلاح مهم على مستوى الصلاح الفردي دون التغيير المجتمعي الذي يتطلب كل القوى والفئات بقدر مشترك من التوافق العام على الأهداف وليس على معايير مثالية من الاصطفاء .إن مهمة الإصلاح تستوجب العمل على أساسات التغيير الثلاث :إصلاح التفكير والتعبير والتدبير ، والجانب التربوي يصب في علاج التعبير القولي والعملي بتهذيب النفس والسلوك الانساني ،في مقابل التقصير في علاج مشكلات التفكير العقلي والتدبير المعاشي .لذلك يُلحظ أن الجماهير المتأثرة بالخطاب التعبيري التهذيبي مذهلة من حيث الإقبال والكثرة ، ولكن عند حصول أي مواجهة فكرية مع عقله أو تحدي واقعي لمثالياته بسبب انفتاح أو تعدد للثقافات والهويات، فإن قلقا وتخبطا يحصل للفرد يلجئه للانكفاء والانعزال أو الذوبان والتلاشي في الغير دون مقاومة .**

**خامسا: تعمد بعض التيارات الإسلامية إلى التخويف والتحذير من الأطروحات الفكرية او من ممارسات النقد والتقويم الذاتي ، مع تهميش متعمد لقضايا الوعي الحضاري والنهضوي ، تحسبا منها أن هذا الصنيع من أجل التماسك والبقاء وحماية الجموع من التفرق عند اختلاف الآراء، بينما هو نخر صامت داخل بنية التنظيمات قد يؤدي للفناء ،لأن حاجة الواقع طاغية على مثاليات الخطاب ، ومناقشة تلك المستجدات وبسطها للحوارات المفتوحة في الهواء الطلق ضرورة معاصرة يستحيل معها انتاج القوالب الموحدة إلا أن تكون قد تجمدت أو غُيِّبت.**

**سادسا: تتجه بوصلة الخطاب الإسلامي في كثير من الأحيان للبحث عن أعداء من أجل التخندق للمواجهة ،ظنا أن افتعال المعارك يضمن أنكفاء الأتباع والجماهير نحوهم ،وعدم التمرد والتماهي في الغير من المخالفين ، ولذلك تكتسب المخالفة دائما المفاصلة و تكتسي ثوب القدسية ، هذه الركيزة حاضرة في كثير من أدبيات الخطاب الإسلامي بالتخويف والتحذير من العدو العلماني أو الطائفي أو الإسلامي المتساهل . هذا النوع من التترس الانعزالي وإضفاء التفرد بالحق والغيرة على الدين بهذه المقاومة الخادعة ، هي أشبه بالمواجهة التي يفتعلها مصارع الثيران مع الثور الهائج الذي ينسى عدوه القاتل و يتجه بجهده وحربه على تمزيق القطعة الحمراء التي يراها تتراقص أمامه باستفزاز، إنه يناطح و يهاجم خيالا لا حقيقة ،إنه ينهك قواه و يبذل مجهوده في ميدان آخر لا يريده ، والمتأمل في كثير من صراعات الإسلاميين يجداها لا تخرج عن هذا التسطيح ، بينما عدو الجهل والتخلف والاستبداد واستلاب الهوية و تنمية الوطن ،قضايا ثانوية وأحيانا هامشية في خطابهم الإصلاحي؟!.**

**سابعا: الخطاب الإسلامي المعاصر عاطفي في التأثير وسطحي في التحليل ، وقد يضحي الفرد المسلم بالنفيس عند التنفيذ إلتزاما بحيثيات هذا الخطاب، في مقابل نجد أدواته في التغيير ، عادة ما تكون بسيطة و هشة عند التناول مع حدّة وشدة في المضي لها، لذا يتعامل مع المواقف والأحداث من خلال فهم ماضيها التاريخي ، أو من وجهها المقابل او موجتها الأولى أحيانا، و واقع الصومال في حربه الطويلة غير المبررة شرعا وعقلا دليل على هذا النقص في الخطاب الديني المعاصر، وافغانستان أيضا في خلافاتهم السياسية حول قضايا هامشية في الأولوية حولت البلاد إلى مخيمات نازحيين وعصابات للمخدرات و مقابر للنفايات و شتات للملايين من الشباب ، بينما الوعي المقاصدي والحضاري يكاد لا يوجد في خطاب قيادات العمل المسلح ولا حوار سوى للبندقية والمدفع ، والعراق وفلسطين ليست بعيدة عن هذا التطبيق ،وهو ما يفسر السبب في الافتقار الشديد للمراكز البحثية والدراسات العلمية والاحتكام المعرفي لمناهج التوثيق والتحليل في رصد الظواهر والتعامل معها.**

**هذه بعض الرؤى والتأملات في واقع خطابنا الإسلامي المعاصر، لعلها أن تعيد بوصلة الإتجاه للمسار الصحيح قبل فوات الوقت وذهاب السائرين.**

**المسألة الثانية : دور الوعي الجمعي في التحولات الشبابية .**

**المتأمل في واقع الثورات العربية المعاصرة في مصر وتونس على وجه الخصوص بالرغم من قصر عمرها وسرعة أحداثها وحداثة أسنان قادتها أعطت للتاريخ المعاصر دروسا وعبرا لا يتجاوزها إلا جاهل أو مكابر ، فالشعوب العربية تجاوزت أنظمتها العتيقة وعيا بالحقوق و وضوحا في الأهداف المطلوبة و حفظا وحقنا للدماء والمكتسبات من الهدر أو الضياع ، وهو ما فاجأ العالم كله أن تنجح هذه الثورات وتكسر كل قيود الخنوع والذل والاستكانة للفساد والاستبداد بأقل الخسائر حتى الآن (مصر وتونس واليمن تحديدا).**

**المدهش أيضا في الحالة العربية أن الشعوب لم تنجر كلها وراء دعوات التغيير بالثورة والصدام مع الحكومة حتى الإسقاط ، بل أثبتت بعضها وعيا آخر له حساباته الواقعية و إدراكاته لطبيعة البيئة ونوعية المطالبات و طريقة الإصلاح الملائم للظرف والحالة الراهنة .ولعل أبرز مثال في ذلك موقف الشعب السعودي من ثورة 11 مارس الماضية بكل أطيافه و تنوعاته ،حيث وقف مع حكومته وأختار التغيير وفق القنوات الرسمية، والمناصحة المباشرة وغير المباشرة لمن ولي أمر البلاد ، وسطّر هذا الموقف إنجازا آخر لوعي الشعوب بدورها التغييري متى كان الظرف والتغيير هو الأصلح والأنسب ، أمام هذه الحالة من المشهد السعودي على وجه الخصوص ، أذكر بعض التأملات والصور التي أرتسمت في ذهني حينئذٍ،أختصرها في النقاط التالية :**

**أولا: أثبت المجتمع السعودي على خلاف التوقعات الغربية وبعض العربية وعيه الكبير بالطريق الأسلم للوصول إلى مطالبه وحقوقه ، فبالرغم من التهييج الإعلامي وفرح الشارع العربي بانتصار ثورة مصر و تونس و خروج المظاهرات في عدد من الأقطار العربية ،إلا أنه كان أكثر واقعية وإدراكا بمآلات الأمور التي يمكن أن تحدث داخل النسيج المجتمعي ، صحيح أن البُعد الديني المحرم للتظاهر قد أثر في معنويات الراغبين ، ولكن يكفي أن الطيف الديني حتى المبيح للمظاهرات لم يشرّع المشاركة في هذه الحالة من المطالبات بطريقة الخروج للشارع والصدام المتوقع مع رجال الأمن ، ومع ذلك التنادي من الهيئات الشرعية بالمنع استجاب الناس كقناعة لها دوافعها الأخرى في الإمتناع ، هذه الحالة الفريدة التي توافق فيها المجتمع على اختيار طريقته في الإصلاح ، يجب أن تستغل ويتم الرهان على هذا الوعي الجمعي في إصلاح الكثير من الظواهر السلبية في مجتمعنا المحلي مثل ضعف الجودة والاتقان ، الإلتزام بآداب التعايش واحترام الآخرين في الطريق وأماكن الترويح و الإفادة من الخدمات والمرافق العامة ، كما يمكن الحدّ من بعض العادات والأعراف الخاطئة كالإسراف والمغالاة في الأفراح و طريقة الضيافة و أساليب العيش السلبية التي تهدر فيها الأوقات والأموال والصحة، إلى غيرها من المظاهر التي يمكن أن يكون للوعي الجمعي دور رائد في تخفيفها إذا لم يكن القضاء الكلي عليها.**

**ثانيا: ظهور الأثر الديني والإلتزام الفردي بالفتاوى الرسمية في تلك الأزمة ، وهذا البعد الضارب في العقل السعودي منذ القدم يمكن أن يكون صمام أمان و مكمن هداية للمجتمع ، ولكن بشروط أراها ضرورية في إكمال هذا الدور الحيوي ، وهو أن يجدد الخطاب الدعوي في المملكة روحه ومضمونه كما عليه ان يغير في طريقته واسلوبه ، وهذا لا يعني حداثة الوسائل فقط كالخروج في الفضائيات و المواقع الالكترونية ، ولكن أقصد تحديث الخطاب في مضمونة وطريقة عرضه ،بالتركيز على خطاب الإعمار الدينوي في مقابل العمل الأخروي، كذلك الموزانة بين الطرح المثالي للمسلم المتورع عن كل شبهة والمسلم الواقعي المتعرض لكل شهوة ، كما نحتاج إلى المزاوجة بين الإقناع العقلي عند التعليل الشرعي للاحكام ، والرد إلى المقاصد الكلية عند الترجيح والإستدلال، هذه الأمثلة للتوضيح وإلا فالحاجة عظيمة في خلق هذا النوع من الخطاب المناسب لعصرنا وانفتاح مجتمعنا وتنوع الأفكار بيننا.**

**ثالثا: أن الثقة بين الحاكم والمحكوم تتكامل بمدى مصداقيتها بين الطرفين ، أما وقد أبدى طرف الشعب ثقته بقياداته في أن تتولى الإصلاح دون إملاءات الشارع و مطالباته الصارخة ،بقي أن تمارس المؤسسات الرسمية دورها الأكبر في تنفيذ الوعود وتصحيح الأخطاء الماضية التي ظهر للجميع خصوصا في المؤسسات الخدماتية قمة استخفافها بحقوق الفرد عندما يرغب في إيجاد وظيفة أو الحصول على مقعد في الجامعة أو إيجاد سرير للعلاج أو معونة تخفف عنه أعباء الحياة ، كما يحتاج المجتمع إلى انتفاضة عاجلة تزيح ديناصورات الفساد وتزلزل كيانات المفسدين .فأغلب المراقبين للشأن السعودي يؤكدون وضوح الأوامر الملكية التي قدمها خادم الحرمين بعد عودته سالما من رحلته العلاجية ، ولكن عندما يدخلها التأويل في تنزيلها أو التأخير في تنفيذها فإن أزمة ثقة قد تنشأ من جديد بسبب سوء التدبير من قِبل بعض التنفيذيين المتنفذين ، مما يجعلنا جميعا أمام تحدي آخر للصدام وانفكاك اللحمة الوطنية .**

**رابعا: المرحلة التي نعيشها كسعوديين اليوم تتطلب وبأسرع وقت ؛تحديد أهداف غائية وجوهرية عليا ، تحمل الوضوح للجميع ،ويستلهمها المواطن والمسؤول في عمله و معاشه ، وتُعلن على الشعب كخطة تحدي ،تشعل في نفوس الجميع الوصول لها ، وتخفف من كل الخلافات الجانبية وآثارها المحبطة ، وتساعد على النمو و البعث من جديد ، كقوة ناهضة في المنطقة العربية والعالم أجمع ، هذه الفكرة هي أساس التقدم التي نظّر لها عدد ممن درس قيام الدول وسقوطها كابن خلدون وشبينجلر و توينبي ومالك بن نبي ، كما أن المملكة تملك كل مقومات البداية لنهضة حضارية متميزة في جانبها المادي والمعنوي ، بالإضافة إلى أن الشعوب لا تتفق و تتناغم إلا على أهداف تنموية واضحة المعالم يستهدي بها كل الفرقاء والمختلفين ، وفي تجارب بعض المجتمعات مثل الهند و ماليزيا دليل واضح على تلاشي الخلافات والتنوعات الدينية والعرقية مادام هناك أهدافا واضحة تحقق الرفاة والرغد للفرد والوطن . ومن المؤكد أن المملكة ليست لديها مشكلة مع عدو خارجي فمكانتها الدينية و قدسيتها في قلوب المسلمين لوجود الحرمين تمنحها حماية شعبية من كل العالم الإسلامي ، ولكن مشكلتنا الحقيقية هي مع بُنية التخلف و الجهل وضمور الوعي وقصور مؤسساتنا التنموية وهو التحدي الذي ينبغي أن تُبذل فيه الجهود والميزانيات ،والثمرة ليست ببعيد ، أليس الصبح بقريب ؟!.**

**المسألة الثالثة :محاذير من بعض التحولات الشبابية نحو التغيير والإصلاح .**

**أولا :تصحب الثورات العادلة أحيانا فوضى وهدر لكثير من المكتسبات بطريقة ظالمة ، قد تُميت الأحياء وتُفسد الحياة ، و حفظ نظام الحياة بصلاح معاش الناس من أعظم مقاصد الشريعة ، وهذا المقصد قد يَغيب عند هياج التصادم وإندلاع المواجهات و انسكاب الدماء ، فالسلمية في المطالبة قد تنحرف بفعل المصادمة مع قوات الأمن الحكومي ، لذا ينبغي أن يعي المُطالبين بالإصلاح ضرورة أن لايفضي عملهم ؛الوقوع في مفاسد أو مظالم أعظم ، مثل تعمد قتل الأبرياء و تسويغ دخول أعداء الداخل أو الخارج من المتربصين بالثورة الدوائر، أو القضاء على مكتسبات الدولة والمجتمع بالتكسير والتدمير للآثار والمباني الرسمية و الخدمات العامة ، يُضاف إلى ذلك أن الشباب الثائر من غير حكمة العقلاء و تؤدة أهل الرأي قد يتحولون من أداة إصلاح إلى معول فساد ، و وجود الفراغ القيادي ينذر بخطر التشرذم والتنازع عند الإختلاف وهذا لا محالة واقع ،لهذا تتجه الأنظار إلى قيادة أهل الشرع الملامسين لنبض الشعب ، وتوليهم مسؤولية التوجيه والضبط كونهم أقرب قيادة تنقذ الموقف من الإنحراف نحو ماذكرت من أخطار وأشرار قد تحيق بالثورة الفساد ،خصوصا عندما يطول أمدها ويمتد سعيرها، هذه المسؤولية التي اوجبتها فريضة الوقت تقتضي مع الفقه ؛الاجتماع على الرأي في تقدير المصالح ومعرفة المآلات والإعتدال في النظر ،بعيدا عن أهل الشغب من دعاة التطرف وخطباء البغي الموتورين بالانتقام والتشفي ، وأختم هذه النقطة بأن تلك الرؤى محض اجتهاد لعلها أن تخفف غلواء الجنوح الذي وصلت إليه بعض الثورات ،وتعيد لأهل الفقه والرأي الديني مسؤوليتهم التي تلاشت مع الوقت ، وإن كان فيها من عموم فلأن الثورات باتت مشتعلة في أكثر من قطر ، والتاييد أو الرفض لها قد مضى زمانه ، كونها أصبحت واقعا فرض نفسه على الجميع ، ولكن تقليل أوجاعها واخطارها واجب اهل الفقه والنظر ، والله المستعان وعليه التكلان.**

**ثانيا :رغبة المجتمع في الولادة من جديد ، والبحث عن الأمل مهما كان طريقه بعيدا وشائكا ، هذا الحلم الذي يعيشه كثير من أفراد مجتمعاتنا اليوم ،قد يدفعهم نحو المخاض ولو قبل موعده وتحمل آلامه مهما بلغت من شدة ، لذلك يتوقع الفرد اسوء الاحتمالات و يقبل بكل نتائج الفوضى المجتمعية في سبيل تحقيق أحلامه ،ما دام أنها سوف تنقله في أقرب وقت إلى العيش الرغيد ، لذلك تكمن القابلية للفوضى في المجتمعات الشابة أكثر من غيرها ، لأن طبيعة الشباب المغامرة نحو أحلامهم تجعلهم يضحون بكل شي وباندفاع شديد ، ويقدمون على التغيير مهما كانت نتائجه ،و يرغبون بالولادة الجديدة ولو من رحم المعاناة والألم مادام أن ذلك الحلم سيتحقق في واقعهم القريب . والمجتمعات العربية أغلب سكانها من الشباب، وهذا مكمن قوة لها إذا كانت تلك الشريحة لا تعاني ظلما أو بطالة أو تخلفا معرفيا ، وإلا استحالة أدوات فاعلة ومناخا قابلا للفوضى المدمرة ، ومالم تدرك الجهات المسؤولة هذه الحقيقة النفسية والإجتماعية وإلا فنفق الفوضى في انتظار الجميع .**

**ثالثا: الرغبة في محاكاة المجتمعات المتقدمة ،والتي باتت تقترب أكثر فأكثر من مجتمعاتنا وتفتح لنا أبوابها ونوافذها لنلحق بها ونتعايش معها لحظة بلحظة ،ولكن في عالم الأثير والنقل الفضائي و التواصل الشبكي ،مما يخلق هذا التنامي في الوصل والاتصال الخيالي إلى تنادي بالاقتراب الحقيقي والمماثلة المادية لتلك المجتمعات ، لهذا تأتي المشاكلة والتقليد للمجتمعات الغربية المتقدمة دليلا واضحا على صدق تلك الرغبة في اللحاق بركبهم مهما كلّف من تبعات ،وقد يكون هذا السبب محفزا لقبول الفوضى إذا كان مآلها الإرتماء الطوعي نحوتلك المجتمعات النافذة الغالبة بأنموذجها الرغيد والمتحرر من الهيمنة والاستبداد ، هذا السبب لا يظهر للوهلة الأولى دوره في تسويغ القابلية للفوضى المجتمعية ، كون الجميع حتى السلطة و مؤسساتها الرسمية تحاكي وتقلد أنموذجها الغربي بما يحقق مصلحتها ورغباتها الشخصية ، لذلك يمارس الفرد في المجتمع دوره في المحاكاة الخاصة به بما يحقق رغباته في الانعتاق من واقعه المحبط ، والتماهي في المماثلة بالآخر ،مما يورث خللا في نسخ الواقع الغربي ونقل تجاربه حتى لو كانت الأرض والزمان لا تنبت هذا الأنموذج من التغيير .**

**هذه الملاحظات المبنية على مشاهدات واقعية و تحوالات متوقعة في عالمنا العربي ، تقتضي إحتواء المشكلات لا قمعها وتلبية المطالبات الحقوقية لا سلبها ، ولا يكون الأمر مجديا إلا بجهد جماعي تمارسه مؤسسات المجتمع المحلية والمؤسسات الرسمية الأممية ،لأن عدوى الفوضى قابل ايضا للانتشار في كل جسم لديه القابلية للفوضى والإشتعال .**

**رابعا : وهذه النقطة تخص مواجهة التطرف الفكري الذي جعل بعض الشباب حرابا حادة في مواجهة مجتمعاتهم ، فبعد مرور أكثر من عقد على مواجهة التطرف في أكثر من مكان عربي وإسلامي , ومحاربة وجوده في المؤسسات التعليمية والمجتمعية , أطرح تساؤلاتي حول نتائج تلك المعركة بجولاتها المختلفة , وفي إمكانية نجاحنا  في دحض شبهات المتطرفين والقضاء على جيوبهم المنتشرة في كثير من المدن والقرى والأرياف المهجورة ؟, وهل استطعنا أن نوجد الأنموذج الصحيح للتدين المعتدل ؟, وهل قلَّصت جهود الدعاة والعلماء دوائر المتعاطفين مع الفكر التكفيري ؟ وهل بعد هذه السنوات نستطيع أن نقول أننا حصّنّا عقول أجيالنا من أي خطر للتطرف قد يهدد مستقبل أجيالنا القادمة ؟ وهل لامسنا حقيقة التطرف الغائر في القناعات أم أن نقدنا يأتي كردود فعل لبعض الممارسات الجهادية التي تقع هنا أو هناك ؟.. أعتقد أن هذه التساؤلات وغيرها ضرورية لتقويم تجربتنا و تصحيح مفاهيمنا نحو الأخطاء المرتكبة والتي تعتبر طبيعية إذا ما قارناها مع حجم المواجهة وتعقّد مجالاتها وتشابك أسبابها , ولكن يبقى طرح الأسئلة والمراجعة حول هذا الموضوع مهم للغاية لنعرف موقعنا بالضبط وموقع المقابل كذلك ؛ لنفهم أبعاد الجولة القادمة والأسلحة المناسبة لها , ولعل أهم ما يجب مراجعته في إطار واجب المؤسسات هو أداء الأجهزة الإعلامية والتعليمية على وجه الخصوص في نشر الوعي الحضاري والفكر المعتدل والتسامح الأخوي بين أبناء المجتمع الواحد ,وذلك أن دورها شمولي لكل الأفراد وأثرها قوي في حس الإنسان ومشاعره وعقله اللاواعي بالدرجة الأولى, خصوصا أن معركتنا الحقيقية مع التطرف هي في ميدان الفكر والعلم و أسلحة الحرب فكرية بالدرجة الأولى وأدواتها معرفية وضحاياها ليس بأموات هامدين بل هم أحياء يعيشون بيننا , وقد يحملون تلك الفيروسات الخطيرة وهم بيننا ؛ لكننا لا نستطيع التنبؤ عن موعد تفاعلها أو انفجارها في الجسم والمجتمع لخمودها أحيانا وتلوّنها وقبوعها تحت السطح أحيانا أخرى, فالتركيز على المواجهة الأمنية ليس هو العلاج الحاسم  لهذه الأزمة أو الخيار الوحيد لمواجهتها ؛ بل يعتبر حلا مؤقتا ومرحلة أولى للقضاء على الحالات الخطيرة التي استفحل فيها المرض ولم يعد من خيار إلا القطع والبتر للعضو التالف ، وليس للحالات الحاملة لتلك الفيروسات القاتلة والتي قد تستوجب إجراءات علاجية مستمرة ومكثفة لتأهيل المريض للعودة مرة أخرى لمجتمعه نقيا وصالحا , وأي تقاعس في المبادرة نحو المعالجة الفكرية قد يؤدي إلى انتشار الوباء داخل الجسد , وحينها تكون خيارات النجاة قليلة ونتائجها باهضة.
والحقيقة أن الواقع الإسلامي خلال الفترة الماضية حمل الكثير من التنظيرات وأنتج العديد من المؤتمرات وتشكلت لها لجان عدة , ولكن ثمرة هذه البرامج في التغيير وجدواها في الإصلاح لايزال متواضعا ودون الطموح في الوصول إلى قناعات مؤثرة وإيجابية تجعل الشباب المتحمس سواء كان متدينا أو غير ذلك يتفاعل معها ويؤمن بها ويتحصن من ضدها , وللأسف أن مراجعتنا وتقويمنا لبعض الشخصيات العلمية التي لها فتوى شاذة مخالفة لمقاصد التنزيل الرشيد للنص السديد مثل فتاوى بعض أئمة الدعوة المعاصرين في الردة والتكفير والجهاد ضد المخالفين وغيرها , أوالمؤلفات العقائدية المعاصرة التي اختارت بعض الآراء الفقهية والعقدية في هجر المبتدع ولو كانت بدعة يسيرة مبناها الجهل أوالعرف المتوارث كحال كثير من الشعوب الإسلامية المتأثرة بالتصوف أو التشيع , أو الكفر بالموالاة المطلقة لغير المسلم أو الحكم بالضلال والهلاك العام للاشاعرة والماتريدية , وغيرها من مراجعات هامة تحتاج جرأةً علمية من هيئات موثوقة لا تخضع لسلطة الجماهير أو الدول أو الإعلام المسّيس, و مناقشة المرجعيات العلمية المحرّضة – سواء بقصد أو بغير قصد - في أرائها ونقدها موضوعيا ينبغي أن لا يقابل بحساسية شديدة من الأتباع والمحبين , لأن الحق أحب إلينا والمعصوم هو الوحي ومبلغه صلى الله عليه وسلم , وكل علمائنا الكبار من أئمة المذاهب ومن دونهم لم يسلموا من الخطأ والنقد والمراجعة وتغيير الفتوى , فالاحترام لا يعني التقديس, والعصمة والنقد لا تعني النكوص والاتهام , وحتى لا يصبح الأمر منفلتا لغير المتأهلين أجد من المناسب أن يقوم بهذا الدور هيئة كبار العلماء أو المجامع الفقهية بتكليف خاص من المؤسسة الرسمية الحكومية ؛ لتوضيح الموقف الشرعي من الولاء والبراء كمفهوم للسلف يتفق مع مقاصد الشريعة ويجمع النصوص كلها ولا يجزّيء فهمها , كذلك تطبيقات الجهاد على العصر الحاضر والموقف من غير المسلمين والمخالفين لأهل السنة أفرادا ودولا وجهات , وتحقيق المعنى بدار الكفر والإسلام , وحقوق ولاة الأمر وحفظ نظام الأمة ورعاية مكتساباتها , فهذه المسائل وغيرها تعتبر أهم الإشكالات الفكرية التي يتسلح بها المتطرفون ويغضّ الطرف عنها المعتدلون , فهل نكسب المعركة الحقيقة في جولاتها الفكرية .لف علأما هو الى عادتنا القديمة في ترك الأمور تمور حتى لا يبقى إلا الويل والثبور؟! .**

**وختاما أسال الله تعالى التوفيق والسداد والعفو من الخطأ والزلل . وصلى الله وسلم على محمد وآله وصحبه أجمعين .**